(٢٦)

وإذا الموؤدة سئلت بأي ذنب قتلت ؟

يقول تعالى فى أول سورة التكوير :

* ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ (٩) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١ - ١٤].

هذه السورة لا نصيب لمن لا يؤمن بالغيب من هديها، فهى تتحدث عن بعض أحداث يوم القيامة .. وهى غيب، وعن البعث .. وهو غيب، وعن الجنة والنار .. وهما غيب، وعن جبريل والملائكة .. وهم غيب ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾، وعن بعثة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ .. وهى غيب ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ﴾، وعن القرآن الكريم .. وهو غيب يخبر بأنباء الغيب ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾، ثم تختم السورة بذكر الغيب الأكبر وهو الله ـ تعالى ـ وذكر مشيئته وهى قدره .. وقدره غيب ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

وإيمان المؤمنين .. هو تصديق بالغيب، وكفر الكافرين .. هو تكذيب بالغيب.

والإيمان كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام فى الحديث المشهور الذى يرويه لنا عمر بن الخطاب ﷺ : «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره».

وهذه الأركان الستة للإيمان .. كلها غيب، وكلها مذكورة فى هذه السورة التى إذا استمع إليها المؤمن بالغيب خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى واستقام على صراط ربه المستقيم، و إذا استمع إليها الذى يكفر بالغيب مر كأن لم يسمعها، وقد يهز كتفيه دليلاً على عدم الاكتراث، وقد يفغر فاه فى بلاهة دليلاً عل عدم

الاكتراث، وهذا هو ما يمكن أن يُتوقع من كفار قريش ـ وكل كافر بالغيب ـ ولكن هناك آيتان لن يملك كفار قريش إلا الالتفات إليهما لأنهما تشيران إلى جريمة يرتكبونها ولا سبيل لهم لإنكارها ويصعب عليهم تبريرها أو الدفاع عن أنفسهم إذا حوسبوا عليها.

هذه الجريمة هى وأد البنات دون ذنب أو جريرة مخافة عار سلوكهن إذا كبرن أو عار أسْرهن إذا غلبهم أعداؤهم فى الحروب المستعرة التى لا تخمد بين القبائل فى هذا الحين مما جعلهم يستنون سنّة الأشهر الحرم التى يحرم فيها القتال حتى لا تأكلهم هذه الحروب التى لا تنتهى والتى تشتعل بينهم لأتفه الأسباب لفراغ عقولهم وسوء رأيهم.

لاشك أن الإشارة فى هذه الآيات لهذه الجريمة سوف تشغل بالهم وتضعهم أمام أنفسهم فى مواجهة ـ وهذه المواجهة سوف تسفر عن سخف موقفهم وتهافت منطقهم فى وأد البنات ـ فمن أمهاتهم وزوجاتهم وأخواتهم؟ ألم يكنّ بنات ولكن أفْلتن من الوأد؟ وهل كان يمكن أن يكون لهم وجود إذا وئدت أمهاتهم وهن بنات صغيرات؟ وكيف يكون موقف قبائلهم فى المدى البعيد وهم الحريصون على تكاثر العدد والمباهاة به إذا وأدوا البنات؟ وكيف يجد الرجل منهم زوجة فى المستقبل إذا لم يفلت من الوأد إلا الصبيان دون البنات؟ .. وكيف .. وكيف .. وكيف؟! .. أسئلة كثيرة لا تنتهى إلا باكتشاف بشاعة هذه الجريمة التى سوف تُسأل عنها الموؤدة يوم القيامة .. بأى ذنب قتلت؟

وسؤال الموؤدة هنا أبلغ من سؤال الذى وأدها .. ولنضرب لذلك مثلاً .. فما موقف القاتل فى الدنيا وهو يقف أمام المحكمة، وقبل أن يدافع عن نفسه وينكر تهمة القتل .. جاء القتيل إلى ساحة المحكمة ـ فرضًا ـ بنفسه وسأله القاضى من الذى قتلك؟ قال: إن هذا المتهم الذى يَمثُل أمامكم هو الذى قتلنى. ألا يُلجم هذا الموقف المفترض .. القاتل عن الكلام؟ .. ألا يشعر وقتها أنه مدان وهالك لا محالة؟

هذا الموقف المفترض فى الدنيا، سوف يحدث فعلاً يوم القيامة، وسوف تُسأل الموؤدة أمام من وأدها .. بأى ذنب قتلت؟ ألا يحسب هؤلاء المعاندون والمكذبون بالبعث والقيامة لهذا الموقف حساب؟

إن «إذا» الشرطية فى السورة هى بمثابة مطرقة تطرق على رؤوسهم اثنتى عشرة مرة وجواب شرطها فيها هو قوله تعالى: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ أو كما قال تعالى فى سورة الانفطار التى تلى هذه السورة مباشرة ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ .. أو كما قال الله تعالى بشىء من التفصيل: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ٣٠]. والتحذير رأفة بالعباد لعلهم يثوبون إلى رشدهم والمهلة أمامهم .. فهل ينتهزون الفرصة قبل أن تضيع بانقضاء آجالهم وقد سبقهم إليها أولو الألباب الذين استجابوا لربهم ونفضوا عن أنفسهم ركام الجاهلية ـ أى جاهلية ـ بما فيها من عبادة الأوثان ووأد البنات والعصبية الفارغة لدين الآباء والأجداد؟

إنه تحذير لهؤلاء ولكل مُكَذِّب أو مُعرِض أو مذنب فى كل زمان ومكان يستمع إلى آيات القرآن الكريم تتلى عليه .. فإن استجاب فبها ونعمت، وإن أعرض فلا يلومن إلا نفسه، وأبواب الغفور الرحيم مفتوحة دائمًا ولا يُصد عنها أحد مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠].

❀ ❀ ❀

(٢٧)

.. كذلك يضل الله من يشاء

ويهدي من يشاء ..

يقول تعالى فى ختام سورة التحريم :

* ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ... ﴾.

[التحريم: ١٠].

* ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ... ﴾ [التحريم: ١١].

* ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ... ﴾[التحريم: ١٢].

يلفت النظر فى هذه الآيات الثلاث من سورة التحريم أن الله ـ تعالى ـ يضرب المثل للذين آمنوا بامرأتين، والمثل ضرب للذين آمنوا من الرجال والنساء. وفى هذا إعلاء لقدر النساء فهن شقائق الرجال، وإذا كانت مهمة الرجال فى الحياة هى الإنتاج المادى، فإن مهمة النساء فى الحياة هى الإنتاج البشرى وتربيته وتنشئته .. وما أشرفها من مهمة.

وجاء الإسلام لكى يعلى قدر المرأة بعد أن كانت متاعًا يباع ويشترى ويورث. فإذا تأملنا فى الآيات نجد أن الله ـ تعالى ـ يريد أن يقول لنا فى المثل الذى ضربه للذين آمنوا أنه من الممكن أن تنبت فى أرض الكفر براعم الإيمان، وأن يخرج من قصر فرعون نموذج للإيمان، وهذا النموذج امرأة، وهذه المرأة هى امرأة فرعون نفسه .. والله قادر على كل شىء. وحتى لا يحتج أحد على كفره أو شركه أو معصيته بأنه وجد آباءه وأهله على ذلك، فلو كان مقهوراً على ذلك فلماذا لم تُقهر امرأة فرعون التى ضُرب بها المثل للذين آمنوا ؟

وفى مقابل هذا المثل ضرب الله قبله مثلاً للذين كفروا بزوجتين من زوجات الأنبياء هما امرأة نوح وامرأة لوط ﴿ ... كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾. وتأمل هذه المفارقة، وهى أن يُضرب المثل للذين كفروا بامرأتين كانت كلتاهما زوجة لنبى، ويضرب المثل للذين آمنوا بامرأة فرعون، وردد مع التأمل قوله تعالى: ﴿ ... كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ... ﴾ [المدثر: ٣١]. وسبحانه لا راد لمشيئته،

ولا عائق لإرادته، ولا مانع لما أعطى، ولا معطى لما منع، وردد أيضًا قوله عز وجل: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

إن هذه أمثلة لمشيئة الله المطلقة فى أن يضل من يشاء ولو كانت زوجة لنبى ويهدى من يشاء ولو كانت زوجة لفرعون.

ثم يعود بنا الله ـ تعالى ـ إلى القاعدة المضطردة، والسنة المعتادة، وهى أن من يجتهد لكى يكون أهلاً لتلقى فيوض رحمة الله، فإن الله يفيض عليه من رحماته .. ولكل مجتهد نصيب.

وهذه مريم ابنة عمران يأتى ذكرها بهذا الاسم ـ حيث لم تُذكر به فى موضع آخر فى القرآن ـ لكى يشعرك الله أنها واحدة من النساء لا تُعرف إلا إذا نسبت إلى أبيها كشأن باقى النساء، ولكنها اجتهدت فى العبادة واعتزلت قومها كما قص الله ـ تعالى ـ علينا قصتها ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ [مريم: ١٦، ١٧]. وأحصنت فرجها كشأن كل شريفة وعفيفة، فضلاً عن أنها كانت موهوبة من أمها للمعبد .. عابدة لله وخادمة للمعبد.

فما الذى حدث ؟ .. تلقت فيوضات من رحمة الله سبحانه وتعالى ولنفسح المجال للنص القرآنى ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢].

والقصة بعد ذلك معروفة ومفصلة فى سور القرآن الكريم وخاصة سورة آل عمران، وسورة مريم. ويكفى أن الله ـ تعالى ـ جعلها وابنها ـ المسيح عليه السلام ـ آية للعالمين ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١]، وقال عنها: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢]. وقال عنها

الرسول عليه الصلاة والسلام فى الحديث الذى يرويه أنس بن مالك ﷺ : «خير نساء العالمين أربع: مريم بنت عمران، وآسيا امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت رسول الله».

إن هذا الختام لسورة التحريم يتقابل مع بدايتها .. حيث كانت البداية مع امرأتين من نساء النبى عليه الصلاة والسلام (عائشة وحفصة ﷺ) أحدثتا أزمة فى بيت النبوة ـ وليس هذا مجال لسرد تفاصيل هذه الأزمة ـ ففى هذا الختام ترغيب لهما للاقتداء بالمثل الذى ضربه الله للذين آمنوا بامرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وفى نفس الوقت ترهيب لهما من سوء العاقبة كما حدث لامرأتين ضرب بهما المثل للذين كفروا رغم أنهما امرأتان لنبيين هما نوح ولوط عليهما السلام .. فلا ضمانة لهما ـ بالتالى ـ بأنهما امرأتان لخاتم المرسلين ـ عليه الصلاة والسلام ـ سوى تقوى الله فقد قال الله تعالى لهما: ﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم: ٤].

وصدق رسول الله ﷺ حيث قال فى الحديث الذى رواه أبو هريرة ﷺ :

«من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه».

فليجتهد كل مسلم لكى يكون أهلاً لهداية الله سبحانه وتعالى ولا يكون أهلاً لإضلاله وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

❀ ❀ ❀

(٢٨)

الاستغفار في القرآن

إذا أردنا أن نختار سورة من القرآن الكريم يشيع فيها الاستغفار من أولها لآخرها فسوف نجد ضالتنا فى سورة نوح عليه السلام.

ففي أولها نقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ١ - ٤].

وفى وسطها نقرأ قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠ - ١٢].

وفى آخرها نقرأ قوله تعالى: ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨].

إن سورة نوح عبارة عن صدور أمر من الله تعالى إلى نوح عليه السلام بالرسالة وإبلاغها إلى قومه بانه نذير من الله لكى يعبدوه ويطيعوا رسوله فإذا استجابوا لدعوته بشرهم بغفران ذنوبهم.

والسورة تتضمن أيضًا تقرير من نوح عليه السلام مرفوع إلى الله تعالى بما حدث من أمور تتعلق بالداعى والدعوة والمدعوين ويتضمن هذا التقرير أنه قال لقومه استغفروا ربكم فهو غفار للذنوب وكريم فى العطاء. ثم يختم هذا التقرير بدعاء من نوح عليه السلام يطلب فيه المغفرة من الله .. له ولوالديه ولمن دخل بيته مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات فى كل زمان ومكان.

والاستغفار .. يدفع عن النفس الشعور بالكبر والزهو بالنفس والعُجْب بأعماله وكذا بعباداته، ويورثها الإحساس بالتقصير، وهذا الإحساس بالتقصير يدفع المسلم للمزيد من العمل فى طاعة الله فتزداد حسناته ويثقل ميزانه عند الله يوم القيامة.

وتدبر قول الله عز وجل للرسول عليه الصلاة والسلام بعد أ ن فتح الله على

المسلمين مكة ودخل الناس بعدها فى دين الله أفواجًا: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١ - ٣]. فإن حكمة الله بالغة فى هذا التوجيه الوارد فى السورة حتى لا يتيه المسلمون عُجْبًا بهذا الفتح وهذا النصر فهو نصر الله ومن الله فلا يتجبرون فى الأرض على من نصرهم الله عليهم دون قتال.

وتدبر أيضًا حكمة الاستغفار دبر كل صلاة كما علمنا الرسول عليه الصلاة والسلام فى هذا الدعاء المأثور: «استغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه».

حتى لا يُعجب المسلم بصلاته وعبادته ويتألى بها على الله كما تألى بعض الأعراب على الله ومنّوا على الرسول عليه الصلاة والسلام بإسلامهم وسجل الله - تعالى - عليهم ذلك فى كتابه العزيز وأوحى لرسوله بماذا يرد عليهم: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

ولذلك كانت من التوجيهات الأولى من الله لرسوله قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: ٦].

وقد أوصى الرسول عليه الصلاة والسلام الصحابة رضوان الله عليهم بلزوم الاستغفار فقال فيما رواه عنه ابن عباس ﷺ: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً ومن كل هم فرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب» رواه أبو داود.

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام أسوة وقدوة لأصحابه فى ذلك فعندما أوصاهم بأن يكثروا من الاستغفار قال لهم فيما رواه عنه أبو هريرة ﷺ: «والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة» رواه البخارى. رغم أن الله - تعالى - قد بشره بقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١، ٢].

والاستغفار .. هو دعاء الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين منذ آدم عليه السلام حتى خاتم الأنبياء والمرسلين عليه الصلاة والسلام وإلى أن تقوم الساعة. ولنصحب المستغفرين وآيات استغفارهم فى القرآن الكريم .. ونسأل الله أن نكون منهم.

١ ـ استغفار آدم وحواء :

﴿ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾.

[الأعراف: ٢٣].

٢ ـ دعاء نوح عليه السلام :

﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا ﴾ [نوح: ٢٨].

٣ ـ دعاء إبراهيم عليه السلام :

﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٤٠، ٤١].

وكذلك فى ضراعته إلى الله : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [الشعراء: ٧٨ - ٨٢].

٤ ـ دعاء موسى عليه السلام :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾.

[القصص: ١٦].

٥ ـ دعاء الملائكة حملة العرش :

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ [غافر: ٧].

٦ ـ دعاء الصالحين رضوان الله عليهم :

﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.

[الحشر: ١٠].

٧ ـ دعاء الاستغفار الذى علمه الله لكل مستغفر :

﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

٨ ـ دعاء سيد الاستغفار الذى علمه لنا الرسول .. عليه الصلاة والسلام :

«اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت، خلقتنى وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك على، وأبوء بذنبى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» رواه البخارى عن شداد بن أوس رضي الله عنه .

❀ ❀ ❀

(٢٩)

تأملات

في أطول قسم في القرآن الكريم

يقول تعالى فى أول سورة الشمس :

* ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ① وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا ② وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا ③ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ④ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ⑤ وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ⑥ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ⑦ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ⑧ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ⑨ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ١ - ١٠].

* يعتبر افتتاح هذه السورة أطول قسم فى القرآن الكريم. وفيما يلى نحصى ما أقسم به الله .. باعتبار أن «ما» مصدرية :

١ ـ الشمس. ٢ ـ ضحى الشمس.

٣ ـ القمر. ٤ ـ النهار.

٥ ـ الليل. ٦ ـ السماء.

٧ ـ بنيان السماء. ٨ ـ الأرض.

٩ ـ طحو الأرض. ١٠ ـ النفس.

١١ ـ تسوية النفس.

* إن تعدد المقسوم به يوحى بأهمية وخطورة المقسوم عليه أو جواب القسم .. والمقسوم به هو النفس .. مقسوم بها فى ذاتها وفى تسويتها، وهى فى نفس الوقت المقسوم عليها فقد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها .. وهذا هو جواب القسم.

* ولكن لماذا أقسم الله بكل هذه الأقسام، وبكل هذه المخلوقات ؟

نقول ـ والله أعلم ـ أن هذه الأقسام رموز تتعلق بالنفس المقسوم بها والمقسوم عليها.

فالنفس البشرية لها أحوال، فهى تضىء كالشمس بضوء الإيمان إذا أحاط بها ما يساعدها على ذلك من آيات بينات كضحى الشمس ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾، وهى تنير كنور القمر فى ليلة التمام ولو أحاطت بها الظلمات كما تحيط بالقمر مستمدة نورها من ضوء الإيمان كما يستمد القمر نوره من ضوء الشمس ﴿ وَالْقَمَرِ

إِذَا تَلاهَا ﴾ ، والنفس تجليها الطاعات فتسطع كضوء النهار، وتغشاها المعاصى فتظلم كظلمات الليل ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾. والنفس تعلو كالسماء إذا رغبت فيما عند الله وكانت الآخرة أكبر همها ﴿ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴾ ، وترد إلى أسفل سافلين كالأرض وإلى الأرض والتراب إذا أعرضت عما عند الله وكانت الدنيا أكبر همها ﴿ وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴾.

* ثم نأتى للنفس المقسوم بها والمقسوم عليها، فنلاحظ أن القسم فى هذه السورة بين متقابلات .. فالشمس يقابلها القمر، والنهار يقابله الليل، والسماء يقابلها الأرض، أما النفس فلا يقابلها شيء لأنها منقسمة فى ذاتها إلى قسمين متقابلين وهما الفجور والتقوى ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ .. فهى ذات طبيعة مزدوجة، وكل قسم منها يقابل نجداً من النجدين المشار إليهما فى قوله تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ١٠].

وهذه الطبيعة تتفق مع كون الإنسان مخيراً وليس مسيراً، ومن هنا وجبت الحياة الآخرة للحساب الذى يقود ـ بدوره ـ إلى نهايتين ومستقرين .. إما إلى الجنة لمن أحسن العمل، وإما إلى النار لمن أساء العمل.

لذلك كان الفلاح هو نصيب من زكى نفسه من أدران الكفر والشرك والمعصية فأصبحت نفساً مؤمنة وموحدة وطائعة، والخيبة هى نصيب من دسى نفسه فى أوحال الكفر والشرك والمعصية.

لذلك كان من أدعية الرسول عليه الصلاة والسلام التى علمنا إياها :

*** «اللهم آت نفسى تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها».**

.. آمين .

❀ ❀ ❀

(٣٠)

وقالوا لجلودهم : لم شهدتم علينا ؟

يقول تعالى فى سورة فصلت :

* ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ [فصلت: ١٩ - ٢٤].

هذه الآيات من أكثر الآيات فى القرآن الكريم دلالة على علم الله المحيط بكل أحوال البشر، وما الوسائط من جلود وسمع وأبصار إلا لإقامة الحجة على الخلائق يوم القيامة وبدونها فإن الله ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٣، ١٤].

وعجيب هذا الحوار الذى سوف يدور بين المكذبين والعصاة وبين جلودهم. والجلود هى التى تستر جسم الإنسان فكيف تأتى الفضيحة من ناحيتها ؟!

والجلود هى التى تحيط بجسم الإنسان وفيها مراكز الإحساس باللذة والألم، وهى التى تغلف الحواس من سمع وأبصار وشم وتذوق ولمس .. فكيف الهروب منها؟! وهل يستطيع الإنسان أن يستتر منها إذا قال وإذا فعل ؟! وكيف له أن يستتر من الساتر ؟!

إنها شاهد الإثبات الذى لا يمكن تكذيبه .. لذلك لم يكذبها هؤلاء التعساء، ولكن غاية الأمر أنهم لاموها ﴿ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ﴾ .. فكان ردها حاسمًا ﴿ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ .. فهى مقهورة ومأمورة من الله ـ تعالى ـ على النطق والشهادة.

ولعل كل قارئ لهذه الآيات يتحسس جلده بعد قراءتها .. ويقول له: ماذا أنت فاعل بى ؟ وماذا أنت قائل عنى ؟ وماذا سوف تكون شهادتك يوم القيامة؟.

إن هذه الآيات تصم كل من يحكم التدبير، ويمعن فى التخفى، ويستتر خلف السواتر، إنها تصمه بالسذاجة والغفلة والغباء لأنه ظن أنه بالتدبير والتخفى والاستتار قد أفلت بجريمته، وبأقواله وأفعاله المنكرة.

لقد كان لهؤلاء المناكيد ظنون خاطئة في الله سبحانه وتعالى الذى لا يند عن علمه شيء فى الكون ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾. [الأنعام: ٥٩].

وهذا الظن الخاطئ هو الذى أهلكهم فأصبحوا من الخاسرين. ولو أنهم استمعوا إلى الرسل ولبوا نداءهم، وعرفوا الله عن طريقهم .. ما سكنت هذه الظنون فى عقولهم الخربة ولاستقاموا على أمر الله مع الذين استقاموا وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ ... إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾. [النجم: ٢٨].

ولمزيد من السخرية من هؤلاء فإن الله ـ تعالى ـ يقول عنهم: ﴿ فَإِن يَصْبِرُوا ﴾ فيظنون أن هذا باب أمل للنجاة فتح لهم فيعاجلهم بقوله تعالى: ﴿ فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ ومرة أخرى يقول عنهم: ﴿ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا ﴾ فيظنون أن هذا أمل جديد فى النجاة فيعاجلهم الله تعالى بقوله: ﴿ فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾.

وهم الذين كانت تأخذهم العزة بالإثم إذا هم عوتبوا فى الدنيا، أما فى الآخرة فالعتاب أمل بعيد المنال .. حيث لا كلام ولا عتاب ولا اعتذار مصداقًا لقوله تعالى :

* ﴿ هَذَا يَوْمُ لا يَنطِقُونَ (٣٥) وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات: ٣٥ - ٣٧].

اللهم لا تخزنا ولا تفضحنا يوم العرض عليك .. آمين.

❀ ❀ ❀

(٣١)

عدة الدعاة إلى الله

يقول تعالى فى أول سورة المدثر :

* ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ [المدثر: ١ - ٧].

إذا رجعنا إلى سورة نوح سوف نجد أنها تتضمن تكليفاً موجزاً من الله ـ تعالى ـ إلى نوح عليه السلام، كما تتضمن تقريراً مفصلاً من نوح إلى الله .. وهو درس هام للدعاة إلى الله يتعلمون منه أساليب الدعوة والصبر عليها.

وسورة المدثر تتضمن تكليفاً مفصلاً من الله ـ تعالى ـ للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يتعرف منه الدعاة إلى الله عز وجل على عُدة الدعوة التى لابد من توافرها للداعى حتى تثمر دعوته وتصل إلى من يدعوهم واضحة جلية. أما الاستجابة والهداية فهى بيد الله ـ سبحانه ـ فهو يهدى من يشاء، وما على الرسول ـ كل رسول ـ إلا البلاغ المبين.

وبذلك تتكامل السورتان .. من سورة نوح نأخذ التقرير المفصل عن أساليب الدعوة وأحوالها ومن سورة المدثر نأخذ التكليف المفصل وعُدة الدعاة إلى الله سبحانه وتعالى ..

وهذه العدة تتضح لنا بعد هذا النداء من الله ـ تعالى ـ للرسول عليه الصلاة والسلام. ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾.

١ ـ ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ :

قم حيث لا يصلح لتحمل رسالة الله القعود، والقيام بالرسالة يعنى أن يحملها حق حملها كما أُمر المؤمنون أن يقيموا الصلاة .. أى أدائها حق الأداء. ويعنى أن ينفض عنه ثياب الدفء التى يتدثر بها وثياب القعود، ويرتدى ثياب القيام بأعباء الدعوة الثقيلة التى وُصفت فى سورة المزمل بأنها قول ثقيل ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ [المزمل: ٥]. فما بالك بالعمل المطلوب لها .. إنه أكثر ثقلاً.

ونقطة البداية فى هذه الرسالة والرسالات السابقة .. هى الإنذار لأنه أوقع فى نفوس المدعوين لها وأبعد أثراً. لذلك كان قول الرسول عليه الصلاة والسلام عندما أُمر بالجهر بالدعوة .. «إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد». أما التبشير فيأتى بعد ذلك وتتكامل به رسالة الرسول وكل رسول مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٨]، [الكهف: ٥٦].

٢ ـ ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ :

الله أكبر هى كلمة السر التى تُفتح بها القلوب المستعدة للإيمان، وهى النشيد الذى تلهج به ألسنة المؤمنين، وهى النداء الذى يُنادى به المؤمنون للصلاة، وهى كلمة الافتتاح للدخول فى الصلاة، وهى ترنيمتهم التى يرددونها وهم ذاهبون إلى صلاة العيدين حتى تقام الصلاة، وكذلك وهم ذاهبون للجهاد فى سبيل الله، وبها يستلمون الحجر الأسود عند الطواف حول الكعبة، وبها تُزكى الذبائح التى تقدم هدياً لبيت الله الحرام وكل ذبيحة حتى يحل أكلها، وغير ذلك من المواضع والمواقف. هما كلمتان .. ولكنهما منهاج حياة مثل كلمة التوحيد .. لا إله إلا الله. يريد المسلم عند التلفظ بهما أن يقول أن الله أكبر من كل كبير .. بذاته ومنهاجه .. فهو الخالق وهم المخلوقون، وله الخلق والأمر معًا، وهو القوى وهم الضعفاء، وهو الغنى وهم الفقراء، وهو الكبير المتعال وهم الصغار المهازيل، وهو العزيز وهم الأذلاء، وهو القاهر فوق عباده وهم المقهورون، وهو مالك الملك والملكوت وهم العبيد، وهو الباقى وهم إلى زوال .. هو الله .. ولو استطردنا فى القول لانتهت الحياة قبل أن ينتهى.

٣ ـ ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ :

والتطهر أمر مادى ومعنوى، مادى فلا تصح الصلاة وكثير من العبادات إلا بطهارة الثوب «والطهور شطر الإيمان» كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام ـ رواه مسلم ـ، ومعنوى بتطهير النفس من أرجاس الشرك والوثنية والجاهلية وكل ما يتعلق بها من تصورات أو عادات أو معاملات أو توجهات.

٤ ـ ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ :

والرجز هو العذاب مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ [الجاثية: ١١]. والمقصود من الآية .. هجر موجبات العذاب، أى هجر المعاصى والآثام التى توجب عذاب الله لمن وقع فيها .. أى الانتهاء عما نهى الله تعالى عنه.

٥ ـ ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ :

أى تقول فعلت كذا، وفعلت كذا .. وتكون النتيجة أن تستكثر ما فعلت، وهذا الاستكثار يعنى المن على الله بما فعلت وهو صاحب المن والفضل فيما فعلت، ويؤدى فى نفس الوقت إلى الاكتفاء بما فعلت فهو كثير فتكون بذلك قد حرمت نفسك من مزيد الإحسان لأن من يحسن فإنما يحسن لنفسه مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ... ﴾ [الإسراء: ٧]. فضلاً عن أن المن يُحبط العمل فتحرم ثوابه. وصدق صاحب الظلال حين قال: «إن هذه الدعوة لا تستقيم فى نفسٍ تحس بما تبذل، فالبذل فيها من الضخامة بحيث لا تحتمله النفس إلا حين تنساه».

٦ ـ ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ :

الصبر هو الوقود الذى تسير به مركبة الدعوة إلى الله وبدونه تتوقف حتى لو توافرت باقى الأدوات، وهذا الوقود لا يستمد إلا من الله مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ... ﴾ [النحل: ١٢٧]. وما دام من الله فلا يكون إلا لله عز وجل مصداقًا لقوله تعالى عن أولى الألباب: ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ... ﴾ [الرعد: ٢٢]. لقد توافرت بطبيعة الحال لنبى الله يونس عليه السلام كل أدوات الدعوة السابق ذكرها وعندما فقد الصبر توقفت مركبة الدعوة .. لذلك يقول الله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ ... ﴾ [القلم: ٤٨]. وعليه أن يكون مثل أولى العزم من الرسل

فهو منهم وهو إمامهم مصداقًا لقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ...﴾ [الأحقاف: ٣٥].

ولأهمية الصبر .. فقد أُمر الرسول عليه الصلاة والسلام بالصبر فى القرآن الكريم ثمان عشرة مرة.

هذه أدوات ست للدعوة أُمر بها الرسول عليه الصلاة والسلام فى بداية الدعوة فكانت خير عون له، وأثمرت هذا النور الذى ملأ أرجاء الدنيا.

وعلى كل داعية إلى الله ـ تعالى ـ أن يأتمر بها ويتأسى برسول الله ﷺ وتنفيذه لها، وليرجع فى ذلك إلى سيرته العطرة التي هى ترجمان لهذه الآيات الست وليتذكر قول الله عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

❀ ❀ ❀

(٣٢)

من يهديك لحظه .. يهديك لفظه

يقول تعالى فى أول سورة الصف :

* ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢، ٣].

هذا نداء من الله عز وجل للذين آمنوا يتضمن لومًا وتوبيخًا لمن يختلف فعله عن قوله، وأن الله ـ تعالى ـ يمقت هذا مقتًا شديدًا، والمقت هو شدة الكراهية.

فلماذا كان هذا اللوم والتوبيخ الشديد ؟

لأن المؤمن يجب عليه أن يكون تطبيقًا عمليًا للحق الذى هو عليه، ونموذجًا حيًا لدين الإسلام الذى يعتنقه، حيث أن هذا النموذج هو ما كان عليه المسلم الأول وخاتم الأنبياء والمرسلين عليه الصلاة والسلام. فقد كان خلقه القرآن كما أخبرت بذلك السيدة عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن خلق الرسول عليه الصلاة والسلام. فقد كان قرآنًا يتحرك ويمشى على رجلين.

وهكذا كان شأن الصحابة رضوان الله عليهم، وبهذا النموذج دخل الناس فى دين الله أفواجًا فى عهد الرسول والصحابة، وبهذا النموذج أيضًا دخل الإسلام على أيدى التابعين بإحسان بلادا كثيرة وانتشر فيها دون أن تتوجه إليها جيوش الفتح الإسلامى.

وعلى العكس من ذلك إذا خالف العمل القول، فإن هذا يطعن فى أصل إيمان المؤمن مصداقًا للقول المأثور: «ليس الإيمان بالتمنى، ولا بالتحلى، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل». ويقال إنه من أقوال التابعى الكبير الحسن البصرى.

فالإيمان قول وعمل ولا يخلو موضع فى القرآن الكريم من الإشارة إلى «الذين آمنوا وعملوا الصالحات» لأن العمل الصالح دليل على الإيمان، كما أن العمل الصالح لا يقبل عند الله يوم القيامة إلا إذا كان مسبوقًا بالإيمان، والإيمان والعمل الصالح كلاهما دليل على الآخر، وهما صنوان لا يفترقان.

إن اختلاف العمل عن القول لا يقتصر أثره على المؤمن، ولكنه يمتد إلى أن

يطعن الناس في أصل الدين الذى هو عليه وهو الإسلام، فينفرون منه ومن دينه ويترتب على ذلك الصد عن سبيل الله.

وبدلاً من أن يكون المؤمن سبباً فى دخول الناس فى دين الله أفواجاً ـ كما كان الحال فى صدر الإسلام ـ يكون سببًا فى صدهم عن هذا الدين وطعنهم فيه وفى أتباعه.

من هنا كان المقت الكبير من الله ـ تعالى ـ واللوم والتوبيخ الشديد لمن يقول مالا يفعل، ولا يفعل ما يقول، فضلاً عن سوء الحساب يوم القيامة كما أخبرنا الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام فى الحديث الذى يرويه أسامة بن زيد ﷺ: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتاب بطنه (تخرج أمعاء بطنه) فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحا فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان مالك ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر فيقول: بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه» متفق عليه.

لذلك قالوا ينبغى على من يتصدر للدعوة إلى الله أن يراجع موقفه من الآيات التالية :

* ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾. [البقرة: ٤٤].

* ﴿ ... وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ... ﴾ [هود: ٨٨].

* ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢، ٣].

فإذا ضمن لنفسه عدم الوقوع فى المحظورات التى وردت فى هذه الآيات البينات فيلدع إلى الله ـ تعالى ـ لأنه سوف يهدى الناس بقوله وفعله فيكون ذلك أوقع فى التأثير وأحرى بالاتباع وصدق من قال: «من يهديك لحظه، يهديك لفظه».

أما إذا لم يضمن ذلك فعليه أن يجاهد نفسه أولاً فى هذا الدين قبل أن يجاهد الناس فيه حتى لا يصدهم عن سبيل الله ويكون فتنة لهم بدلاً من أن يكون هادياً لهم ..

وذلك لأن ... من لا يهديك لحظه، لا يهديك لفظه.

❀ ❀ ❀

(٣٣)

أرأيت الذي يكذب بالدين ؟

يقول تعالى :

* ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ [الماعون: ١ - ٧].

* من هو المكذب بالدين ؟ وبأى شىء يكذب ؟ وما هو المقصود بالدين الذى يكذب به ؟

ثلاثة أسئلة تثيرها الآية الأولى من هذه السورة القصيرة، وأولها يتعلق بهذا المكذب الذى يلفت الله النظر إليه ويسلط عليه الأضواء لكى يتعرف عليه الناس ولا يختلف فى شأنه أحد ولا ينخدع عنه أحد.

إنه المكذب الذى يكذب بالدين .. وهذه هى إجابة السؤال الأول والثانى معاً.

أما المقصود بالدين وهو السؤال الثالث .. فإن الإجابة تشمل الآتى :

الدين : هو العقيدة التى تربط الإنسان بالكون وبخالق الكون، وبالإنسان الذى هو من جنسه، وبالمخلوقات التى تحيط به.

والدين : هو النظام الذى يضع الإطار المحكم لهذه الروابط والعلاقات المشار إليها، وهو الأوامر والنواهى الصادرة للإنسان من الله فإن أطاعها سعد فى الدنيا والآخرة، وإن عصاها شقى فى الدنيا والآخرة.

والدين : هو يوم الدين الذى يداين فيه مالك يوم الدين الخلائق، ويتداين فيه الخلائق بعضهم بعضاً، وهو البعث والحشر والحساب والجنة والنار.

* وتحمل لنا الآية الثانية والثالثة من السورة .. مفاجأة !! حيث إن الذى يتبادر إلى الذهن من الآية الأولى أن الذى يكذب بالدين .. هو الكافر بالله أو المشرك أو الذى يعبد الأصنام والأوثان، أو الذى ينكر البعث والحساب، أو الذى يكذب بالرسول الخاتم ـ عليه الصلاة والسلام ـ والرسالة الخاتمة، أو الذى ينكر ما هو معلوم من الدين بالضرورة .. وهذه هى الاحتمالات ـ ومثلها ـ التى تتبادر إلى الذهن.

ولكننا نفاجأ بأن الذى يكذب بالدين هو :

* ﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾.

حيث إننا نظن أن من يفعل ذلك .. يدخل فى باب المعاصى أو حتى الكبائر، ولا يدخل فى باب التكذيب بالدين. ونكتشف أن فهمنا القاصر للدين هو الذى قادنا لهذا الظن، أما الحق فهو ما قاله الله و ﴿ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ [يونس: ٣٦].

صحيح أن الدين هو كما عرّفناه آنفًا .. ولكنه أيضًا كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام «الدين حسن الخلق» كما تواترت الأحاديث بذلك، وكما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن سبب بعثته: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» رواه أحمد والبيهقى ومالك.

فمن التزم بمكارم الأخلاق فهو مصدق بالدين، ومن اتصف بمساوئ الأخلاق فقد كذب بالدين. وبالتالى فإن الذى يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين فقد كذب بالدين .. لأن الدين بهذا المفهوم لا يقتصر على أداء العبادات والفرائض، أو الاعتقاد دون أن يكون لهذا الاعتقاد الأثر البالغ فى السلوك .. فمن صدق بالدين عليه أن يكون محبًا للخير ومقدمًا له وداعيًا إليه، ماداً يد العون لكل ضعيف أو مسكين.

إنهن ثلاث آيات قصيرة .. ولكنها تضيف مفهومًا للدين شديد الأهمية وعظيم الشأن ولولاه لكان فهمنا للدين قاصراً وناقصاً.

* وبعد هذه المقدمة التى أثارتها الآية الأولى من السورة .. تعال بنا نتوقف عند كل آية من الآيات التالية :

* ﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ :

ودع اليتيم هو دفعه وزجره بشدة بدلاً من الرفق به وتقديم العون له. يقول تعالى فى معنى «الدع» عن المكذبين يوم القيامة :

* ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣].

وقد أوصى الله باليتيم فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، [الإسراء: ٣٤].

ومنع قهره فى قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: ٩].

وتوعد من يأكل ماله ظلمًا فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

وأوصى الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذى ولد يتيماً .. أوصى باليتيم كثيراً فى أحاديثه التى نذكر منها ما يلى :

* «أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا ، وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما. رواه البخارى.

* «من مسح على رأس يتيم لم يمسه إلا لله كان له فى كل شعرة مرت عليها يده حسنات» رواه أحمد وغيره.

* «خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشر بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه» رواه ابن ماجه.

وغير ذلك من الوصايا لله ـ تعالى ـ وللرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ذلك لأن اليتيم هو من فقد أباه أو أبويه .. فهو الصغير الذى فقد السند والمعين، وكذلك كل ضعيف أو قاصر أو قليل الحيلة، أو مهيض الجناح لا ظهر له أمام الأقوياء ومستحق للحماية والرعاية.

من هنا يتبين لنا بشاعة سلوك من يدع اليتيم دعًا .. وهو سلوك ينم عن الإيجابية فى الشر .. لأنه فِعْل، ولا يفعل ذلك ومثله إلا مكذب بالدين .. لا يخاف سوء الحساب.

* ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾.

والحض .. هو الحث وإثارة الرغبة فى الفعل، والطعام .. هو الاحتياج الأول والأساسى لحياة الإنسان .. ومن بخل به بخل بما فوقه، والمسكين .. هو من أسكنه الاحتياج عن الحركة، أو من عنده ما لا يكفيه، أو افتقد الأسباب أو بعضها التى إذا توافرت أغنته عن غيره. ويتضح معنى المسكين من قوله تعالى :

* ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ... ﴾ [الكهف: ٧٩].

ورغم أن لهم سفينة .. فهم مساكين لا يكاد يكفيهم عملهم بها فى البحر.

إن عدم الحض على طعام المسكين .. هو تكذيب بالدين ويُقدم صاحب هذا السلوك المستنكر للنار .. فهو ممن سوف يأخذون كتابهم بشمالهم واستمع إلى قوله تعالى عن هذا التعيس :

* ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ [الحاقة: ٣٠ - ٣٢]. لماذا ؟

* ﴿ إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ ﴾ [الحاقة: ٣٣ - ٣٧].

ويجمع الله بين هاتين المخالفتين فى قوله تعالى :

* ﴿ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾.

[الفجر: ١٧، ١٨].

* ﴿ فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾.

[البلد: ١١ - ١٦].

ومن هنا يتبين لنا أيضًا بشاعة من لا يحض على طعام المسكين، فهو سلوك ينم عن السلبية فى الخير .. لأنه امتناع عن فعل .. ولا يمتنع عن ذلك إلا مكذب بالدين.

وبذلك نستطيع من هذين المثلين أن نضع قاعدة تنطبق على كل الأحوال المماثلة.

وهى أن السلبية فى الخير مثل الإيجابية فى الشر ..

وأن الممتنع عن فعل الخير مثل فاعل الشر .. وأن كليهما مكذب بالدين .. إما بالعقيدة إن كان كافراً، وإما بالسلوك إن كان مؤمناً .. وكلاهما يتوعده الله بالعذاب .. فى يوم الدين.

* ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ :

إن هذا الاستطراد فى ذكر الصفات الذميمة .. يرجح أن السورة بأكملها لا تخص المكذبين بأصل الدين، ولكن تخص المؤمنين الذين يسلكون فى حياتهم .. فى معاملاتهم وعباداتهم .. سلوكًا ينافى الدين، وهذا السلوك يجعلهم يبدون وكأنهم يكذبون بالدين، لأن الإيمان والعمل الصالح صنوان لا يفترقان، والتفرقة بينهما تكذيب بالدين.

فبعد أن ذكر الله ـ تعالى ـ الذى يدع اليتيم، ولا يحض على طعام المسكين، ذكر المصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون .. ولا يصلى إلا المؤمن، ولا يوصف بالمصلين إلا المؤمنون .. ولكن الإيمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل .. العمل الصالح بطبيعة الحال.

يتوعد الله ـ تعالى ـ المصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون بالويل وهو العذاب الشديد أو هو أحد أودية جهنم .. كما قيل.

والآيات لا تتحدث عن تاركى الصلاة، ولكن تتحدث عن نوع من المصلين، الذين هم عن صلاتهم ساهون .. والسهو هنا عن الصلاة وليس فى الصلاة لأن عدم السهو فى الصلاة لا يستطيعه أحد وشُرع له باب من أبواب الفقه، وقد سهى الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى صلاته وهو أكمل الخلق.

ولقد ورد فى السهو عن الصلاة أقوال كثيرة نذكر منها :

* أن الساهين عن الصلاة هم اللاهون الذين يتغافلون عنها ويترتب على ذلك تضييعها أو تضييع أوقاتها والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾ [النساء: ١٠٣]. والرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقول لابن مسعود ﷺ عندما سأله: أى الأعمال أفضل؟ قال: «الصلاة على وقتها» متفق عليه. وأفضل الوقت هو أوله.

* أو أن الساهين عن الصلاة .. هم اللاهون عن حكمتها.

* أو أن الساهين عن الصلاة .. هم المصلون الذين لا يتمون ركوعها وسجودها باطمئنان.

* أو أن الساهين عن الصلاة .. هم المصلون الذين إذا صلوا لا يرجون لصلاتهم ثواباً ولا يخشون لتركها عقاباً.

وتأكيداً لهذا المعنى يروى لنا أبو برزة الأسلمى أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال عندما نزلت هذه الآية: ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ :

* «الله أكبر هذا خير لكم من أن لو أعطى كل رجل منكم مثل جميع الدنيا .. هو الذى إن صلى لم يرج خير صلاته وإن تركها لم يخف ربه» رواه ابن كثير فى تفسيره.

* ﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ :

وهذه صفة ذميمة أخرى للساهين عن الصلاة والمكذبين بالدين .. فهم يراؤون بصلاتهم، ويراؤون بعباداتهم .. والرياء هو طلب الدنيا بالعبادة، وطلب المنزلة فى قلوب الناس وعكسه الإخلاص، فمن شأن هؤلاء أنهم يراؤون الناس بصلاتهم وعباداتهم، فهم يصلون ليقال أنهم يصلون، أو يصلون تقية كالمنافقين .. والرياء محبط للعمل.

* ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ :

وهذه هى الصفة الذميمة الأخيرة فى السورة .. وقد قيل فى الماعون أقوال كثير نذكر منها :

أنه ما يستعان به مطلقًا، أو هو حق الغير عندك ومن أهمه زكاة الأموال لأنها فريضة، أو هو ما يستعيره البعض من البعض من لوازم المعيشة أو الحرفة، أو هو أى معونة مطلوبة للغير سواء كانت أموالاً .. جهدًا .. علمًا أو نصيحة أو شفاعة، أو هو ما لا يحل منعه كالماء والنار والكلأ فالناس شركاء فيها كما جاء فى الحديث الشريف.

* فهؤلاء وهؤلاء لم يحسنوا عبادة ربهم ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ولم يخلصوا فى عبادتهم له ﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ ولم يحسنوا إلى خلقه .. ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾.

* اللهم اجعلنا من المصدقين بالدين الذين يترفقون باليتيم ويحضون على طعام المسكين فضلاً عن إطعامه، والذين يقيمون صلاتهم حق الإقامة ويرجون ثوابها من الله ولا يراؤون بها الناس، والذين يقدمون كل عون يطلب منهم .. طالما كان ذلك فى قدرتهم .. آمين.

❀ ❀ ❀